من آيات الله

فيما سخر

قال الله تعالى فى سورة النحل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢].

فالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحار والأنهار والدواب وغيرها مما نعلم ومما لا نعلم كلها مخلوقة ومسخرة بأمره لنفع الإنسان. وكلها تشير إلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، وما تفيض على الناس من نعم.

فبقدرته سبحانه وتعالى سخر لنا الليل والنهار، وجعلهما يتعاقبان على هذا النظام الذى قام عليه، وانتظم وجودنا به.

قال تعالى فى سورة إبراهيم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٣-٣٤].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فقد سخر الله للإنسان ما فى السموات، وجعل فى مقدرته الانتفاع بشعاع الشمس، ونُور القمر، وهَدْى النجوم، وبالمطر، والهواء، والطير السابح فيه.

وسخر له ما فى الأرض، وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبراً، فقد أقامه خليفة فى هذا المُلْك الطويل العريض، ومكنه من كل ما تذخر به الأرض من كنوز، ومنه ما هو ظاهر ومنه ما هو مستتر، ومنه ما يعرفه الإنسان، ومنه ما لا يُدْرِكُ إلا آثاره، ومنه ما لم يعرفه أصلاً من أسرار القوى التى ينتفع بها دون أن يدرى.

وإنه لمغمور فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعم الله السابغة الوافرة التى لا يُدرك مداها، ولا يحصى أنماطَها.

ولقد دعا الله الإنسان إلى الكشف عن أسرار هذا الكون بما أودعه من سلطان العقل، ليعرف جلال الله فى عظمة ملكه، وعظيم قدرته فى إبداع خلقه، وحكمته فى بديع صنعه، ورحمته فى لطيف تدبيره.

قال تعالى فى سورة لقمان: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾ [لقمان: ٢٠].

فالآيات القرآنية تنبه العقل البشرى فى كافة أفراده بأن خَلْقَ هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية، وتسخير ما فيه من عناصر الحياة، ومظاهر النعم، إنما كان لأجل الإنسان الذى كرمه الله تعالى بخصيصة العقل، وفضله به على سائر ما حواه الوجود من مخلوقات لينتفع بها. ولا شك أن الانتفاعَ بأى من هذه المخلوقات التى امتن الله بخلقها وتسخيرها للإنسان. يقتضى أن يتعرف الإنسان فائدة المخلوقات، ولا يتحقق له ذلك إلا بعد معرفة حقائقها تفصيلاً، لأن معرفة الحقيقة يرشد إلى مواطن الانتفاع. فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية هو فى نظر القرآن مهمة الإنسان ما دام على ظهر هذه الأرض لأنه وسيلة إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع. فمن مظاهر التدبير فى الخلق، وظواهر النعمة على البشر، الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، فكلها يلبى حاجة الإنسان فى الأرض وهى لم تخلق له، ولكنها مسخرة لمنفعته. فظاهرة الليل والنهار ذات أثر حاسم فى حياة هذا المخلوق البشرى ومن يشاء فليتصور نهاراً بلا ليل، أو ليلاً بلا نهار، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات فى هذه الأرض كيف تكون. قال تعالى فى سورة القصص: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ**

﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

ومن نعم الله الكثيرة كذلك على الإنسان أن سخر الشمس لتمدنا بالضوء والحرارة، وسخر القمر ليمدنا بالنور الهادئ المريح ليلاً، وجعل الشمس والقمر مراصد للتوقيت الزمنى، ولنعلم بهما مواقيت العبادات، وعدد السنين، والحساب.

قال تعالى فى سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وكما سخر الله الليل والنهار والشمس والقمر سخر النجوم، فهى مسخرات بمشيئته وتمكينه إياها من أداء ما خلقت لأجله.

وفى قوله تعالى: ﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ يمكن أن تكون الواو فى ﴿والنجوم﴾ للحال، والجملة بعدها حالاً من فاعل الفعل (سخر) وهو الله سبحانه وتعالى، والتقدير سخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، فى حال أن النجوم مسخرات بأمره.

وبهذا يرتبط النظام الكونى والنجوم بعضه ببعض، وتنتظمه حال واحدة، وهى التسخير لقدرة الله.

ويمكن أن تكون الواو فى ﴿والنجوم﴾ للاستئناف لا للعطف، على اعتبار أن للنجوم فى ظاهر الأمر وضعاً غير وضع الليل والنهار والشمس والقمر، إذ أن حركة الليل والنهار، والشمس والقمر حركةٌ تظهر آثارُها، وتَنطبِعُ صُورتَهَا على الوجود الأرضى بحيث يتأثر بها كل كائن فى هذا الوجود، ويُنظمُ وجوده عليها. وليس كذلك شأن النجوم، إذ يمكن أن يهمل الإنسان شأن النجوم فلا يلتفت إليها، ولا يقيم وزناً لوجودها دون أن تتأثر حياته كثيراً بذلك.

ومع هذا فإن للنجوم شأناً كشأن الشمس والقمر، وأنها مسخرة بيد القدرة كالشمس والقمر، وإن كان الإنسان فى غفلة عنها.

فالكرة الأرضية جزء من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية جزء من المجرة، والمجرة جزء من هذا الكون الواسع، والنجوم تخدم وجود هذا الإنسان على الأرض بأشكال شتى، ومن ذلك اهتداء الإنسان فى ظلمات البر والبحر بها، قال تعالى فى سورة النحل: ﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل: ١٦]. ﴿**إن فى ذلك لآيات**﴾ لدلالات واضحات وليس آيةً واحدة، لقوم يعقلون عندهم عقل يُحَكَّمونه، فيعرفون الظاهرة وما تدل عليه.

وذكر العقل بعد ذكر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم للإشارة على أن الدلالة فى هذه على القدرة أبهر، والشهادة فيها على العظمة أبين، ومن ثَمَّ فيكفى للإنسان عقل ﴿**لعلكم تعقلون**﴾.

* * *

obeikandl.com